

من رحلات الحج الإيرانية (٢) رحلة ناصر خسرو ٣٩٤ - ٤٨١ هـ ق

حسن الإسلامي

«كنت في جوزجانان أحتسي الخمر، حتى رأيت في المنام أحداً يهتف بي قائلاً: (حتام تحتسي شراباً يُذهب بالعقول؟ أما كان أجدر بك أن تُبقي على وعيك؟... عليك بطلب ما يزيد في عقلك وفهمك). فأجبتُ: وأتى لي بهذا؟ قال: (من جدّ وجد) ثم أشار إلى جهة القبلة ولم يعقب». ناصر خسرو.

ناصر خسرو

رجلٌ يعمل في الديوان، سعيد الحظّ، ينعم بالمال والجاه والراحة، بعد أن اجتاز أواسط العمر، ونزل في منحدر الموت. فجأة، تملكه إحساس الملائة والعبث، فراح ينظر إلى عُمره الذي خلفه وراءه فلا يرى إلاّ فناءً وخواءً. تخلّى عن عمله يائساً، وركن إلى زاوية - ومن أجل الهروب من الواقع - انغمس في احتساء الشراب؛ ليرسل عقله في خيال بعيد، واستمرّ على هذا الحال شهراً واحداً، حتى رأى في منامه حُلماً قلب حياته رأساً على عقب. يقول ناصر خسرو: ذات ليلة، رأيت أحداً في منامي يقول لي: «حتام تحتسي شراباً يُذهب بالعقول؟ أما كان

أجدر بك أن تُبقي على وعيك؟..» فأجبت: «لم يصنع الحكماء شيئاً يُذهب بهم الدنيا غير هذا». فقال: «لا راحة في اللاوعي، والحكيم لا يهدي الناس إلى ما يُذهب بعقولهم، عليك بطلب ما يزيد في عقلك وفهمك». فأجبت: «وأني لي بهذا؟» قال: «من جدّ وجد» ثم أشار إلى جهة القبلة ولم يعقب^(١).

بهذا الحُلم وبهذا الحديث انقطع ناصر خسرو عن ماضيه دفعةً واحدة، وارتبط بمستقبل مشرق، وبعث من جديد، وراح يحدث نفسه: «استيقظت من حُلم الأمس، وأن لي أن استيقظ من حُلم الأربعين سنة كذلك»^(٢) وفعلاً جدّ واجتهد حتى بدّل أعماله وأفعاله كلّها، ووصل إلى الفرج بعد الشدة.

وعلى هذا الأساس، وضع عنه متعلقاته، وعزم على السفر إلى مكة المكرمة برفقة شقيقه الأصغر ورفقة مملوكه، فوصل إليها عن طريق مصر. وقد حجّ أربع مرات. وفي الختام أنهى سبع سنوات من السفر ثم عاد أدراجه؛ ليكتب لنا مذكراته عن هذه الرحلة، ويترك إرثاً يُخلّد ذكره.

حياته:

ولد ناصر عام ٥٣٩٤ هـ. ق في بلدة قباديان بلخ، وتشرب من علوم ومعارف عصره، وحفظ القرآن، وقرأ الملل والنحل، وكان له نصيب في تعلّم الرسم، وأحياناً كان يرتزق منه.

في سنوات شبابه، وجد طريقه إلى بلاط الأمراء، حيث حضر في بلاط الأمير محمود والأمير مسعود الغزنوي، وكان حتى سنّ الثالثة والأربعين، يعمل في الديوان وفي التدريس، وفي هذه المرحلة تفجّرت في داخله ثورة معنوية، فعزم على الرحيل إلى مصر، وتعرّف على الفاطميين هناك، واعتنق مذهبهم، وأقام هناك ما يقارب ثلاثة أعوام، وعند انتهاء الرحلة، رجع بلقب حجة إقليم خراسان، وكمبّلغ عنهم.

ومنذ ذلك الحين، كان في اختفاء وهروب دائمين، حتى التجأ مرغماً إلى يميگان

إحدى ضواحي بدخشان، وقضى حياته هناك وحيداً ومنعزلاً حتى أغمض عينيه عن هذا العالم في عام ٤٨١ هـ. (٣).

بعد عودته إلى خراسان، كان ناصر قد نذر نفسه لمذهبه الجديد ولم يتوان عن خدمته وتبليغه لحظة واحدة، وقد استعان بقوة شعره وقلمه في هذا الطريق.
مؤلفاته:

دافع ناصر المتشرب بعلوم عصره، وبطبعه الشعري وعقله الاستدلالي، وتجربته ذات السنوات السبع، بلا هوادة عن عقيدته الجديدة، وكتب مؤلفات في تأييد المذهب الإسماعيلي.

مؤلفات ناصر، التي اصطبغت بصبغة باطنية، هي محاولة لتفسير نظريات الإسماعيلية والباطنية على أساس عصره. ويغالي ناصر كثيراً في هذا المسير إلى الدرجة التي يتجاهل فيها مسلمات العقل، ويدافع فيها عن التحجّر الطائفي، حتى إنه ذهب إلى تكفير من لم يكن باطنياً. في حين أنّ مؤلفاته، عموماً، تنحى منحىً منطقياً. ومجمل هذه المؤلفات هي:

ديوان أشعاره، خوان الأخوان، زاد المسافرين، وجه الدين، الخلاص والنجاة، والرحلة.

الرحلة:

المؤلف الوحيد الذي لا يحمل مسحة باطنية، هو رحلة الحج، حتى إن بعضاً يعتقد أنه أثناء كتابته لهذه الرحلة، لم يكن يحمل أدنى ميل لهذا المذهب (٤). بعد عودته من السفر، جمع ناصر مذكراته، ونظّم رحلته المذكورة بعبارة محيرة، وبشكل أصبحت فيه من أرقى نماذج تسجيل المشاهدات وتصويرها.

في هذه الرحلة، يشرع ناصر من عمله وسبب تركه له، وحُلُمه الذي أقض مضجعه، والطريق الذي سلكه، والمدن التي شاهدها، والحكايات التي

سمعتها، كل ذلك يشرحه بالتفصيل، وينهي رحلته بشرح عودته منها إلى بلخ في عام ٥٤٤٤ هـ. ق.

خصوصيات هذه الرحلة:

حاول ناصر في هذا الكتاب عدم الابتعاد عن جادة الصواب، وأن يوضح الحقائق بعيداً عن أهوائه فكانت النتيجة، أن أصبح كتابه موضع ترحيب العام والخاص؛ للأسباب التالية:

١- الصدق والإخلاص في عرض الحقائق، حتى على نفسه.

في بداية رحلته، يتحدث عن شربه الخمر لمدة شهر واحد. ويُلقي على مسامعنا هذا الدرس للنبي الأكرم ﷺ «قولوا الحق ولو على أنفسكم»^(٥).

٢- مراعاة الاختصار والإيجاز؛ والابتعاد عن الحشو والزيادة.

يلخص ناصر لنا مشاهداته ومسموعاته في سبع سنوات من رحلته في ١٢٥ صفحة فقط، وهذه دلالة على براعة المؤلف بالاستعمال المناسب للكلمات.

٣- المشاهدة الدقيقة، ووصف وتصوير ما رأى.

فهو لا يمر على الأشياء مرّ الكرام، بل يعطي العين والأذن حقهما، ويصف مشاهداته بشكل نعتقد معه أننا نحن الذين نقل مشاهداتنا.

يقول أحد أصحاب الرأي السديد في هذا المجال:

«من قرأ في هذا الكتاب بدقة وصفه مكة المكرمة، والكعبة المشرفة ومناسك الحج، وتُتاح له زيارة بيت الله الحرام، يرى أنه بالرغم من ألف عام تفصلنا عنه، غير متخلف في أداء مناسك الحج عن أولئك الذين حظوا بشرف أدائها في ذلك الوقت»^(٦).

وهنا يضع ناصر معلومات جمّة بين يدي القارئ، فهو يُطلعه على جغرافية المدن، والفن المعماري، والتقاليد الدينية والاجتماعية والمنظمات الإدارية، وعادات الناس، وحتى مسألة الماء ومعدّل الاستفادة منه.

٤- النثر البسيط وبلا تكلف:

في هذا الحقل، ينظر ناصر إلى اللغة المكتوبة باعتبارها وسيلة اتصال ونقل المعلومات، ومن هذا المنطلق فهو قلماً يقع فريسة للعب بالألفاظ، كما أنه يتعد عن الشوائب الأدبية، وبالرغم من أنه أديب وكاتب، إلا أن هذه الأشياء لم تكن عقبات في طريق عمله. وهذا ما يُفسّر لنا أنه وبعد مضي ألف عام لا يزال كتابه مفهوماً ومشوقاً. وما نراه في الكتاب - أحياناً - مانعاً لعمله من كلمات أو عبارات صعبة؛ فذلك لتباعد الزمان ليس إلا؛ لأن هذه الكلمات أو العبارات هي بالحقيقة، كانت متداولة تماماً، زمان تأليف الكتاب.

٥- الأمانة في نقل المواضيع:

إن ناصر خسرو مع كونه مسلماً ملتزماً، إلا أنه لا يسمح لآرائه أن تتدخل في نقل مشاهداته ومسموعاته، أي حسب ما يُصطلح عليه اليوم (الأمانة في النقل)، هذه الميزة جعلت الكتاب مشوقاً ومرغوباً فيه حتى من قبل من يخالفون ناصر خسرو في العقيدة.

إن الخصوصيات أعلاه - علاوة على موضوع الكتاب وعوامل أخرى - أوجبت طبعه مرّات عدّة، وترجمته، وجعلته موضع عناية المحققين.

طبع هذا الكتاب، حتى الآن، بشكل كامل، ومنتخب ومحقّق، ونُشرت منه نسخ باللغات العربية والتركية والفرنسية والانكليزية^(٧).

وننقل منه هنا فقرات تتعلّق بالحج:

رحلة الحجّ الأولى:

(وذهبتُ إلى مرو، وطلبتُ إعفائي من عملي، وقلتُ: إني عازم على السفر إلى القبلة (الحج)، وعليه فقد سدّدت حساباتي، وتركتُ من دُنْيائي ما أملك، إلا القليل الضروري).

فقد رحلتُ من هناك (مشهد الخليل في قرية حبرون) قادماً إلى بيت

المقدس، وانطلقنا من بيت المقدس مع مجموعة كانت عازمة على السفر إلى الحجاز مشياً على الأقدام. لقد كان دليلنا رجلاً جلدأً، مترجلاً وطليق الوجه. وكان يسمى «أبو بكر الهمداني». وتركنا بيت المقدس في النصف من ذي القعدة سنة ٤٣٨هـ، وبعد ثلاثة أيام، وصلنا إلى منطقة يُقال لها (ارغز) وكانت تحتوي على جداول ماءٍ وأشجار. ووصلنا إلى منزل آخر يُدعى (وادي القرى) ومن هناك انطلقنا إلى منزل آخر، حيث وصلنا بعد عشرة أيام إلى مكة المكرمة. وفي ذلك العام، لم تكن قد وصلت قافلة من أي مكان، وكان يصعب الحصول على الطعام، وبعد ذلك نزلنا في سكة العطارين أمام باب النبي ﷺ.

ويوم الاثنين كنا على عرفات. وكان الناس يهابون العرب كثيراً، وعند العودة من عرفات، مكثت في مكة يومين، وسلكت طريق الشام عائداً إلى بيت المقدس. ووصلنا إلى القدس في الخامس من شهر محرم سنة تسع وثلاثين وأربعمئة هلالية.

لم آت هنا على شرح مكة المكرمة والحج، حتى أصل إلى بيان رحلة الحج الرابعة واستفيض بالشرح.

بعد بيت المقدس، عزمنا على ركوب البحر، متوجهاً إلى مصر، ومن ثم من هناك إلى مكة المكرمة.

رحلة الحج الثانية:

في سنة تسع وثلاثين وأربعمئة هجرية تلي حكم السلطان على الناس من أن أمير المؤمنين يقول: «لاصلاح من سفر الحجاج إلى الحجاز هذا العام؛ لأن القحط والجوع قد ضرب تلك البلاد، وأن خلقاً كثيراً قضوا نحبهم، وإني لأقول هذا من باب الشفقة الإسلامية». وانصرف الحجاج عن عزمهم. وعلى ما هو معهود، فإن السلطان كان يبعث بجلّة الكعبة - كل عام مرتين - ولما كانت النية هذا العام في إرسالها عن طريق بحر القلزم، فقد رافقتهم في ذلك.

غادرت بلاد مصر في غرّة شهر ذي القعدة، ووصلتُ القلزم في العشرين منه، ومن هناك ركبنا السفينة، وبعد مضي ١٥ يوماً وصلنا إلى منطقة يُقال لها (جار)، وكان ذلك في الثاني والعشرين من نفس الشهر، وبعد أربعة أيام كُنّا في مدينة رسول الله ﷺ.

المدينة:

مدينة الرسول - عليه السلام - بلدة تقع على أطراف الصحراء، وأرضها رطبة وماالحة، وتجري المياه فيها ولكن بشحّة، وبساتين النخيل تغطّيها. وهناك تكون القبلة باتجاه الجنوب. ومسجد رسول الله - عليه الصلاة والسلام - يوازي المسجد الحرام في مساحته. وحجرة رسول الله - عليه السلام - جنب منبر المسجد. فعندما تستقبل القبلة تكون إلى اليسار، وحينما يريد الخطيب ذكر النبي - عليه السلام - والصلاة عليه من على المنبر، يُدير بوجهه إلى اليمين، ويشير إلى قبره. وهذه المقبرة عبارة عن بيت خماسي الأضلاع، وقد ارتفعت جدرانها من بين أعمدة المسجد وعددها خمسة، وقد علت جدرانها واقية تمنع الدخول إليها، وقد وُضع في ساحتها مصيدة تمنع ترّد الطير هناك.

وبين القبر والمنبر حجرة أيضاً بُنيت من الرخام شبيهة بالعتبة، تسمى الروضة، ويُقال: إنّها بستان من بساتين الجنة. كما جاء في حديث رسول الله - عليه السلام - حيث قال: «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة» وتقول الشيعة في هذا: هناك حيث قبر فاطمة الزهراء ؑ.

وللمسجد بابٌ. وخارج البلدة، نحو الشمال صحراء، وفيها مقبرة تضم قبر حمزة بن عبدالمطلب ؑ، وهذا الموضع يسمى بقبور الشهداء.

واستمرّت إقامتنا في المدينة يومين، ورحلنا عنها لضيق الوقت، حيث سلكتنا طريق المشرق، وعلى مسافة منزلين من المدينة كان هناك جبل ومضائق عديدة كمضيق (الجحفة) وهو ميقات أهل المغرب والشام ومصر، والميقات هو

ذلك الموضوع الذي يُحرم فيه الحجيج. ويُحكى أنه في إحدى السنين نزل بها حجاج كثيرون، وفجأة غمرهم سيلٌ عرم آبادهم عن آخرهم، ولهذا السبب سُمِّي بـ(الجُحفة). إن بين مكّة المكرّمة والمدينة مائة فرسخ، وهو طريق حجري، وقد قطعناه في ثمانية أيام.

مكّة:

وصلنا مكّة، يوم الأحد، السادس من ذي الحجة، ونزلنا بباب الصفا، وكان عام قحطٍ على مكّة، حيث بلغ سعر كلّ أربعة أرغفة من الخبز ديناراً نيشابورياً واحداً، وكان المقيمون بمكّة يرحلون عنها، ولم يرد أي حاج من أي جهة. وقد أدّينا مراسم الحج على عرفات يوم الأربعاء، بفضل من الباري - سبحانه وتعالى - ثم أقمنا بمكّة يومين، وكان خلقٌ كثيرٌ يهرب من الحجاز، ويهيم بوجهه في كلّ صوب بسبب الجوع وقلة الخيلة. ولن آتي على شرح الحج ووصف مكّة في هذه المرة، بل أدع ذلك إلى المرّة القادمة عندما أصل إليها. حيث المرّة القادمة جاورتها ستة أشهر وما رأته عيناى كتبته يداى.

رحلة الحجّ الثالثة:

ومرّة أخرى في رجب سنة أربعين وأربعمائة هجرية، تلى حُكم السلطان على الخلق وقد جاء فيه: «ضرب القحط الحجاز، ولا نرى صلاحاً في سفر الحجيج، فهم معذورون، وعليهم بأداء ما أمرهم الله تعالى به».

وفي ذلك العام أيضاً لم يسافر الحجاج. وقد بعث السلطان بهداياه السنوية المتكونة من حُلة الكعبة، والخدم والحاشية لأمرء مكّة والمدينة، وصلة أمير مكّة وراتبه الشهري حيث كان ثلاثة آلاف دينار شهرياً وحصاناً وخِلعة، بعث كل ذلك ولكن على دفعتين، ولم يكن قد أخرها عن قصور أو احتباس.

في هذا العام، كان هناك شخص يُدعى القاضي عبدالله، كان يقضي في الشام، وقد أسندوا إليه حمل تلك الهدايا، وقد رافقته إلى طريق القلزم، ووصلت السفينة

هذه المرة إلى (جار) في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وكان الوقت يمضي بسرعة. وثن البعير قد وصل إلى خمسة دنانير، فذهبتُ بعجلة. وصلت مكة في الثامن من شهر ذي الحجة وأديتُ مناسك الحج بتأييد من الحق - سبحانه وتعالى -.

ولما أنهيتُ مناسك الحج، عدتُ أدراجي إلى مصر، حيث كان لي هناك بعض الكتب، ولم تكن لي نية العودة.

رحلة الحج الرابعة:

والآن، أسردُ لكم قصة رجوعي إلى البيت الحرام، في مكة - حرسها الله تعالى من الآفات - من مصر.

فقد صليتُ في القاهرة صلاة العيد، وركبتُ السفينة انطلاقاً من مصر، حيث جرت نحو الصعيد الأعلى، وذلك يوم الثلاثاء المصادف للرابع عشر من شهر ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وأربعمائة هجرية.

جدة:

وهي مدينة كبيرة، ولها قلعةٌ حصينة على شاطئ البحر، وفيها خمسة آلاف رجل، يحدها البحر من الشمال، وتضمُّ أسواقاً جميلة. واتجاه قبلة مسجد الجمعة نحو المشرق، ولا توجد أي عمارة خارج المدينة إلا المسجد المعروف بمسجد رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وبوابتا المدينة، الأولى باتجاه المشرق، التي تواجه مكة، والثانية باتجاه الغرب، وهي تقابل البحر. والمسافة من هناك إلى مكة اثنا عشر فرسخاً. وكان أمير جدة عبداً لأمير مكة، وكان يُلقَّب بتاج المعالي بن أبي الفتوح، وكان أمير المدينة أيضاً كذلك. وقد نزلتُ عند أمير جدة، وكان بي حفيماً، وقد أعفاني من دفع الضريبة التي استحققت عليّ، وعند خروجي من بوابة مسلم إلى مكة كتب أمير جدة يقول: «إن هذا رجل عالم، فلا تأخذوا منه شيئاً». رحلنا عن جدة يوم الجمعة وبعد صلاة العصر، ووصلنا إلى باب مدينة

مكة، يوم الأحد، سلخ جمادى الآخرة. وكان فيها خلقٌ كثير جاؤوا من نواحي الحجاز واليمن؛ ليحضروا العمرة في أول رجب. وهو موسم عظيم وكذلك ليحضروا عيد الفطر، ويأتوا عند موسم الحج. ولأن مسيرهم قريب وسهل فهم يأتون ثلاث مرات كل عام.

وصف مدينة مكة - شرفها الله تعالى - :

تحيط بمدينة مكة الجبال العالية من كل جانب، وإذا توجهنا إليها من أي جهة كانت، لانراها حتى نصل إليها، وأعلى الجبال القريبة منها هو جبل «أبو قبيس»، وهو يبدو كقبة مدورة، إذا أطلق سهمٌ من قاعدته وصل إلى قمته. ويقع على مشرق المدينة، فإذا كنا في شهر دى (هذا الشهر وباقي الشهور الأخرى المذكورة في هذه الرحلة هي من الشهور الهجرية الشمسية) في المسجد الحرام، أشرقت الشمس من فوقه، وعلى قمته ميلٌ من حجر منتصب، يقال: إن إبراهيم عليه السلام نصبه. والعرصة التي أمام الجبل تشكل موقع المدينة، وهي على مرمى سهمين ليس إلا، ويقع المسجد الحرام وسط هذه العرصة. وتحيط المدينة بالمسجد الحرام من كل صوب بأزقتها وأسواقها.

وكل شق في داخل الجبل يشكل باباً، وقد بني له جدار وقلعة، وعليها بوابة. ولا يوجد في المدينة أي شجرة سوى واحدة على باب المسجد الحرام، تقع بجهة المغرب. وبجهة المشرق من المسجد يوجد سوق كبير يمتد من الجنوب إلى الشمال. ويعلو جبل أبو قبيس على الطرف الجنوبي للسوق. وتقع عند قاعدة أبو قبيس (الصفا)، وقد جعلوا في قاعدة الجبل مدرجات كبيرة، بحيث صفت أحجارها بالتسلسل؛ ليقف الناس على أعتابها ويشغلوا بالدعاء. وفي نهاية السوق، من جهة الشمال جبل (مروة) وهو عالٍ قليلاً في وسط المدينة، وقد بنوا منازل كثيرة عليه، فيسعى الناس في السوق من أقصاه إلى أقصاه، وما يُقال عن الصفا والمروة هو هذا.

وللذي ينوي العمرة، إذا أقبل من مكان بعيد، وكان على مسافة نصف فرسخ من مكة، فأينما وجد الأميال منصوبة، ورأى المساجد، أحرم من هناك للعمرة. والإحرام هو أن ينزع عنه الثياب المخاطة ويشدّ إزاراً على ظهره، ويلقّ آخر على بدنه ويمتف بصوت عالٍ: «لبيك اللهم لبيك...» ويتّجه صوب مكة.

وأما المقيم بمكة ممن نوى العمرة، إذا وصل إلى تلك الأميال فعليه الإحرام، وبصيح لبيك، ثم يأتي إلى مكة بنية العمرة، وإذا وصل إلى المدينة أتى المسجد الحرام، واقترب من بيت الله، ويطوف من اليمين، فيكون البيت على يساره: ويصل إلى الركن الذي فيه الحجر الأسود فيقبله، ويعديّ الحجر، ويطوف حتى يصل مرّة أخرى إلى الحجر ويقبله فيكون هذا شوطاً واحداً ويكرّره سبع مرّات. ثلاث منها في حالة الهرولة، والأربعة الباقية بتوءدة. وإذا فرغ من الطواف، يذهب إلى مقام إبراهيم عليه السلام في مقابل البيت، ويقف وراء المقام، فيكون بينه وبين البيت. ويصلي عنده ركعتين يقال لها: صلاة الطواف. وبعد ذلك يأتي إلى بئر زمزم، ويشرب منه الماء، أو يمسح به على وجهه، وبعدها يخرج من المسجد الحرام إلى باب الصفا - وهو أحد أبواب المسجد، فإذا خرج منه لقيه جبل الصفا - فيقف على أعتاب جبل الصفا، ويستقبل البيت، ويدعو بالدعاء المعلوم. وبعد قراءته الدعاء، ينزل منه، ويذهب نحو المروة عن طريق السوق، بحيث يكون اتجاهه من الجنوب إلى الشمال، وعندما يمرّ بهذا السوق يدور حول أبواب المسجد الحرام، وداخل السوق - وفي المكان الذي سعى فيه رسول الله، عليه الصلاة والسلام، وهرول وآخرون كذلك هرولوا - يهرول خمسين خطوة.

يوجد على طرفي هذا الموضع - موضع الهرولة -، أربع منارات، فيأتي الناس من جبل الصفا، وعندما يتوسطون هاتين المنارتين، يهرولون من هناك، حتى يصلوا إلى المنارتين الأخريين، الواقعتين في الطرف الآخر من السوق؛ ليمشوا بعدها بتمهّل، حتى جبل مروة، وحينما كانوا يصلون إلى الأعتاب يصعدون عليها،

ويدعون بذلك الدعاء المعلوم، ويعودون أدراجهم. ومرة أخرى يدخلون إلى هذا السوق. فعندما يسعون أربع مرات من الصفا إلى المروة، وثلاث مرات من المروة فإنهم بذلك يقطعون السوق سبع مرات، وينزلون من جبل المروة على سوق فيه عشرون دكاناً متقابلة، وفيه حجّامون، وهم منتظرون ليحلقوا الرؤوس. وعندما تنتهي العمرة، يخرجون من الحرم، إلى هذا السوق الكبير الواقع بجهة المشرق، والذي يُدعى بسوق العطارين: وفيه أبنية جميلة، وكلّهم بائعوا عقاقير.

يوجد في مكة حمامان. أرضيتهما من الحجر الأخضر، وهو الحجر الذي تُسنّ به السكاكين. ولقد خُمّت أن عدد سكان مكة لا يتجاوز ألفي رجل من الحضرة، والبقية الذين يقدرّون بمئتي رجل هم من الغرباء والمجاورين. وفي ذلك الزمان، كان القحط قد ضرب المدينة، وكانت قيمة ١٦ مئناً من الحنطة، ديناراً مغربياً واحداً مما دفع أهل مكة للخروج منها.

توجد داخل مدينة مكة منازل كبيرة خاصة لمسافري بلاد خراسان، وما وراء النهر، والعراق وغيره، ولكن كانت في معظمها خربة ومهدّمة. وقد شيّد خلفاء بغداد هناك أبنية عديدة وجميلة. وفي ذلك الزمان الذي وصلنا فيه، كان بعضها قد هُدّم وبعضها الآخر قد بنوا عليها الأبنية الخاصة.

آبار مكة كلّها مالحة ومُرّة، إلى درجة يصعب شربها، ولكنهم بنوا أحواضاً ومصانع كثيرة قُدّرت كلفة كلّ منها بعشرة آلاف دينار. حيث تمتلئ هذه الأحواض بمياه الأمطار الجارية من الوديان. وفي ذلك الوقت الذي كنّا هناك كانت خالية.

وكان أمير عدن هناك، حيث كان يُدعى بـ«ابن شاد دل».

وقد جلب ماء من السرايب إلى مكة، وبذل في سبيل ذلك أموالاً طائلة، وفي عرفات كانوا يأخذون من ذلك الماء لزراعتهم. وقد سخّروا الماء لتلك المنطقة. وأنشأوا بساتين فيها، وكان قليل منه يأتي إلى مكة، ولكن لا يصل إلى المدينة

نفسها . وكذلك أنشأوا حوضاً؛ يتجمّع الماء فيه ، فيأخذ منه السقّاءون؛ لبيعه في المدينة .

وعلى مسافة نصف فرسخ من طريق برقة، يوجد مسجدٌ جميلٌ يضمُّ بئراً يقال له بئر الزاهد، وماء ذلك البئر عذبٌ، ولهذا يذهب السقّاء إلى هناك ويحملون الماء لبيعه في المدينة .

إن المناخ في مكة قانص . ووجدت هناك الخيار والأترج والباذنجان الطازج ، حيث كان الوقت أواخر شهر بهمن . وهذه هي المرة الرابعة التي أزورها بمكة ، وقد جاورتها من غرة رجب سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة وحتى العشرين من شهر ذي الحجة .

في الخامس عشر من شهر فروردين كان العنب قد نضج ، وقد شحنوه من الأرياف إلى المدينة ، لبيعه في الأسواق . وفي أوائل شهر ارديهشت ، وصلت كمّيات كبيرة من البطيخ إلى هنا ، وكان الشتاء هناك يحمل معه مختلف أنواع الفاكهة ، ولم تخلُ الأسواق منها أبداً .

قلنا في وصفنا للمسجد الحرام والكعبة المشرفة : إنّ الكعبة تتوسط المسجد الحرام ، والمسجد يتوسط مكة ، أما جدار المسجد فنحن وأركانه مائلة وهو أقرب إلى الدائرة ، لتكون الصلاة فيه ، ومن جميع الجهات ، باستقبال القبلة . ويبلغ طول المسجد الذي يبدأ من المشرق إلى المغرب أي من باب إبراهيم عليه السلام وانتهاءً باب بني هاشم (٤٢٤) أرشاً ، وعرضه من باب الندوة ، من جهة الشمال ، وحتى باب الصفا ، في الجنوب ، في أوسع نقاطه ، يكون محدود (٣٠٤) أرشاً . وبسبب شكله الدائري ، فهو يحتوي على أماكن واسعة وأخرى ضيّقة .

وتحيط بالمسجد من جميع أطرافه ، ثلاثة أروقة مغطاة ومحمولة على أعمدة من رُخام ، وتشكل هذه الأعمدة خمسة وأربعين قوساً تحيط بساحة المسجد ، وعرضها كان ثلاثة وعشرين قوساً ، أما عدد الأعمدة الرخامية فهو مائة وأربعة

وثمانون عموداً. وقيل: إن جميع هذه الأعمدة، قد جيء بها من الشام بطريق البحر وذلك بأمر من خلفاء بغداد. وقيل كذلك: إن الأعمدة التي يُراد وصولها إلى مكة، قد انقطعت الحبال التي كانت تُربط بالسفينة التي تحملها وبالعجلات، فتم بيعها بستين ألف دينار مغربياً. وأحد تلك الأعمدة، هو ذلك المنصوب على باب الندوة، وهو عمود رخامي أحمر، وقد ابتاعوه بثقله من الدنانير، وكان وزن العمود الواحد حوالي ثلاثة آلاف من.

للمسجد الحرام ثمانية عشر باباً، بُنيت كلها على شكل أقواس، على أعمدة من رخام.

وتوجد في جهة المشرق، أربعة أبواب: باب النبي في الزاوية الشمالية وهو مربوط بثلاثة أقواس، وعلى هذه الجهة وفي الزاوية الجنوبية، يوجد باب آخر، وهو أيضاً يسمى بباب النبي، والمسافة بين هذين البابين تزيد على مئة أرس. وهذا الباب مربوط بقوسين، وعندما تخرج من هذا الباب يصادفك سوق العطارين، حيث كان منزل رسول الله - عليه السلام - في ذلك الزقاق. ويرد إلى الصلاة في المسجد من خلال هذا الباب.

ويلي هذا الباب، على الجدار الشرقي، باب علي عليه السلام وهو الباب الذي كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يرد منه لأداء الصلاة. وهو مربوط بثلاثة أقواس، وبعد أن تُعدّي هذا الباب، توجد منارة أخرى على زاوية المسجد، وهي تقع على أول السعي، فيجب الهرولة من هذه المنارة، التي هي باب بني هاشم، وهذه هي إحدى المنارات الأربع.

ويوجد على الجدار الجنوبي، الذي يشكّل طول المسجد، سبعة أبواب: الأول يقع في الركن - وقد جعل على شكل نصف دائرة - ويسمى بباب الدقاقين، ومربوط بقوسين، وإذا اتّجهت قليلاً نحو جهة الغرب، تجد باباً آخر وقد ربط بقوسين، يدعى بباب الفسانين. وإذا تابعت السير قليلاً سيصادفك باب الصفا، قد

ربط بخمسة أقواس . وأكبر هذه الأقواس ، القوس الأوسط ، وعلى كل جانب ، قوسان صغيران ، وكان رسول الله - عليه السلام - يخرج من هذا الباب ليصل إلى الصفا ويدعو فيه . وعتبة هذا القوس الأوسط تتألف من حجر أبيض عظيم ، وآخر أسود حيث كان رسول الله - عليه الصلاة والسلام - يضع قدمه المباركة عليه . وقد طُبع أثر قدمه الشريفة عليه ، وقد إقْتطِع ذلك الجزء الذي يحمل الأثر المبارك من الحجر الأسود المذكور ، وَرُكِّبَ على الحجر الأبيض ، وأنَّ رؤوس أصابع القدم تتجه داخل المسجد . وكان بعض المحجاج يمرِّغ وجهه على ذلك الأثر تبرُّكاً ، والبعض الآخر يرتئي وضع قدمه عليه ، أمّا أنا ، فأعتبرُ وضع وجهي على الأثر أدعى .

ونذهب من باب الصفا قليلاً باتجاه المغرب ، ليواجهنا باب الطوى وقد ربط بقوسين ، ونتابع السير قليلاً فنصل إلى باب التمارين ، وقد ربط بقوسين ، وعندما نتجاوز الباب المذكور نجد باب المعامل وهو كذلك مربوط بقوسين . ويقابله دار أبي جهل ، التي تحولت الآن إلى دورة مياه .

وهناك ثلاثة أبواب على الجدار الغربي ، والذي يشكّل عرض المسجد .

الأول : في الزاوية المطلّة على الجنوب ، وهو يحتوي على عروة ومربوط بقوسين ، وفي وسط هذا الضلع ، يوجد باب إبراهيم عليه السلام بثلاثة أقواس . وأمّا على الجدار الشمالي ، الذي يشكّل طول المسجد ، فهناك أربعة أبواب ، ففي الزاوية الغربية يوجد الباب الوسيط بقوس واحد ، وعندما تتركه متجهاً صوب المشرق ، يلاقيك باب العجلة بقوس واحد . وعندما نستمر في السير نحو أواسط الضلع الشمالي ، يواجهنا باب الندوة بقوسين ، يليه باب المشاورة بقوس واحد . وعندما تصل إلى زاوية المسجد ، في الجهة الشمالية الشرقية ، يلاقيك باب يُقال له باب بني شيبه .

وتتوسط الكعبة ساحة المسجد ، وهي مربعة الشكل طولانية ، وطولها من

الشمال إلى الجنوب ثلاثون أرشاً، وعرضها من المشرق إلى المغرب ستة عشر أرشاً.

وباب الكعبة هو باتجاه المشرق، وعند الدخول إلى الكعبة المشرفة يكون الركن العراقي على اليمين، وركن الحجر الأسود على اليسار، والركن الغربي الجنوبي يقال له بالركن اليماني. والركن الشمالي الغربي هو الركن الشامي. والحجر الأسود موجود على زاوية الجدار وقد رُكّب داخل حجر كبير، ومكان الحجر يصل إلى صدر شخص يقف منتصباً، وأما ارتفاعه فهو بمقدار كفّ وأربعة أصابع وعرضه ثمانية أصابع. وشكله مدور، والفاصلة بين الحجر الأسود وباب الكعبة هي أربعة أرشات. وتدعى هذه الفاصلة بالملتزم. وتعلو باب الكعبة عن الأرض بأكثر من أربعة أرشات، وإذا وقف رجل على الأرض، وانتصب بقامته فسيصل برأسه إلى العتبة. وقد صنّع سلّم من خشب يُوضع أمام الباب عند الحاجة؛ ليصعد عليه مَنْ يريد دخول البيت، وهو من الوُسع بحيث يمكن لعشرة أشخاص ملتصقين من الجوانب الصعود والنزول عليه. وأما أرض الكعبة فهي بالارتفاع الذي ذكر آنفاً. وصف باب الكعبة: باب مصنوع من الخشب الساج، ويحتوي على مصراعين، وارتفاع الباب ٦/٥ أرش، وعرض كل مصراع ذراع واحدة وثلاثة أرباع الذراع، في حين أن عرض المصراعين هو ٣/٥ ذراع، وهناك على الباب كتابات، وعلى مستوى واحد، وجرى تنقيرها على شكل دوائر وكتابات منقوشة من الذهب والفضة.

وقد كتبت هذه الآية عليها حتى آخرها: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ...﴾، ووضعت حلقتان فضيَّتان كبيرتان أرسلتا من غزنين، على مصراعي الباب. لا تصل اليد إليهما.

وهناك حلقتان فضيَّتان أخريان صغيرتان، وضعتا كذلك على مصراعي الباب، وهما في متناول اليد، وهناك قفل فضي كبير يوضع على الحلقتين السفليتين

فتغلق بذلك الباب . وما لم يُرفع القفل لا يفتح الباب أبداً .
وصف داخل الكعبة:

يبلغ عرض الحائط، أي ثخنه، ستة أشبار . وأرضية البيت هي من الرخام الأبيض، وتوجد في البيت ثلاث خلوات شبيهة بالدكاكين، إحداها أمام الباب، والأخرى على الجانب والشمال . والأعمدة المنصوبة تحت السقف في داخل البيت هي من الخشب، مقلّمة من أطراف أربعة، ومصنوعة من خشب الساج، عدا عمود واحد مدوّر . وفي جهة الشمال يوجد سرير رخامي أحمر طويل افترش الأرض، حيث يُقال: إن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - صلى عليه، ولذلك يسعى للصلاة عليه كلّ من يراه .

وجدران البيت مغطاة كلّها بصفائح من الرخام الملون . وهناك على الجانب الغربي، توجد ستة محاريب مصنوعة من فضة وذهب؛ وقد خيطة على الجدار بالمسامير، وارتفاع كلّ واحدة منها بمقدار قامة رجل، كما أنها مرتفعة عن الأرض . وقد ارتفع أيضاً جدار البيت ٤ أرشات من الأرض . وعلاوة على هذا، فالجدار مبنيّ من الرخام حتى السقف . وقد نُقرت عليه النقوش . والجدران الأربعة مطلية بالذهب في معظمها .

أمّا في الخلوات الثلاث التي مرّ ذكرها سابقاً، الموجودة إحداها في الركن العراقي، والثانية في الركن الشامي، والثالثة في الركن اليماني، ففي كلّ من هذه الأركان، يوجد لوحان خشبيان خيطة على الجدار بمسامير فضية، وهي الألواح المتبقية من سفينة نوح عليه السلام وطول كل لوحة خمسة أذرع، وعرضها ذراع واحد . وقد أسدل على زاوية الحجر الأسود من داخل البيت الديباج الأحمر، وفي جهة اليمين عند الخروج من باب البيت، حيث زاوية من البيت وقد قسمت الى أربع جهات، بمقدار ٣ أذرع × ٣ أذرع، وفي هذا المكان يوجد سلّم يؤدي الى سطح البيت، وقد وضع عليه بابٌ فضيٌّ، يسمّى باب الرحمة . وعلى الباب قفلٌ فضيٌّ .

وإذا كنتَ على السطح وجدتَ هناك باباً كباب السطح، غُطِّي سطحها الباب بالفضة.

أما سطح البيت فقد غُطِّي بالخشب، الذي غُطِّي هو الآخر بالديباج، بحيث لا يُشاهد أي أثر للخشب، وعلى جدار واجهة البيت، أعلى الخشب، خيطة كتابات مذهبة، وقد كُتب اسم سلطان مصر العزيز لدين الله على هذه القطعة، أيام استيلائه على مكة، وإخراجها من سلطة الخلفاء العباسيين. وهناك أربع ألواح فضية كبيرة أخرى متقابلة، خيطة كذلك على حائط البيت بمسامير من فضة، ونُقش على كل منها اسم أحد سلاطين مصر، حيث بعث كل منهم لوحاً من هذه الألواح أيام ملكه.

وعُلقت بين الأعمدة ثلاث قناديل فضية، وقد غُطِّي البيت من الخارج برخام يماني كالبلور، وللبيت أربع نوافذ تقع في الزوايا الأربع، وعلى كل نافذة، وُضع لوح زجاجي لإنارة البيت، وليحول دون نفوذ مياه الأمطار إلى الداخل. وميزاب البيت هو في جهة الشمال، في الوسط تماماً، وبطول ثلاثة أذرع، وقد نُقشت عليه كتابات ذهبية. وحلّة البيت كانت بيضاء، وكانت مطرزة في موضعين، وكل طراز بعرض ذراع واحد، والفاصلة بين الطرازين حوالى عشرة أذرع، وتفصل نفس هذه المسافة من أعلى وأسفل الطرازين، حيث ينقسم ارتفاع البيت بواسطة هذين الطرازين إلى ثلاثة أقسام، وكل قسم بطول عشرة أذرع. وعلى الأوجه الأربعة للحلّة، حيكت محاريب ملونة ونقشت عليها خيوط من ذهب، ويوجد على كل جدار محاريب ثلاثة: واحد كبير في الوسط، وعلى جانبيه اثنان صغيران، فيكون بذلك عدد المحاريب المنقوشة على جدران البيت اثني عشر محراباً.

حجر إسماعيل:

خارج البيت، في الجهة الشمالية منه، بُني جدار بمقدار ذراع واحد ونصف

الذراع، ويقترّب طرفا الجدار من البيت، بحيث يكون مقوّساً، على شكل نصف دائرة، وتبعد نقطة الوسط لهذا الجدار عن جدار البيت بحوالي خمسة عشر ذراعاً، وقد جعل جدار وأرض هذا الموضع من نفس رخام البيت وبمقدار خمسة عشر ذراعاً، وهو من الرخام الملوّن والمنقوش. وهذا الموضع يقال له حجر. ويفرغ الميزاب الماء المتجمع على سطح البيت في هذا الحجر. ووُضعت تحت الميزاب لوحة حجرية خضراء، على شكل محراب؛ ليتساقط ماء الميزاب عليه، ومساحتها بمقدار يستطيع شخص واحد الصلاة عليها.

مقام إبراهيم:

وهو من البيت، يقع في جهة المشرق، ويحمل أثر قدمي إبراهيم عليه السلام، وقد وضع على حجر آخر، وجعل له غطاء خشبي ذو أربعة أطراف يكون بمقدار قامة إنسان، وقد أنجز بأروع شكل، ويحمل طويلاً فضّية. وهذا الغطاء مربوط من الجانبين إلى أحجار ضخمة بواسطة سلاسل، ووضع عليها قفلان، حتى لا تمسّها يد، والمسافة بين المقام والبيت هي ثلاثون أرشاً.

بئر زمزم:

وهي من الكعبة المشرفة، وتقع في جهة المشرق، في زاوية الحجر الأسود، وتبعد عن البيت ستة وأربعين أرشاً. ووسع فوهة البئر $3/5 \times 3/5$ ذراع وماؤها مالح، ولكن يمكن شربه، وقد بنوا على فوهة البئر حُجرة من ألواح الرخام الأبيض، ارتفاعها أرشان، ووضعوا خزانات على أربع جهات، ليصبوا فيها الماء، حتى يتوضأ الناس منها، وقد صُمّمت أرضية بيت زمزم بشكل مشبك وهي من الخشب، لجذب الماء المسكوب بسرعة.

وباب هذا البيت (زمزم) متّجه نحو المشرق، ويقابله من جهة المشرق، بيت آخر مربع الشكل، يحوي قبّة، يُعرف بسقاية الحاجّ. وُضعت في داخله جِرار ليستقي منها الحجّاج، وعلى مشرق سقاية الحاجّ أيضاً يوجد بيت آخر طويل،

يحتوي ثلاث قُباب، يُدعى بخزانة الزيت، في داخله شموع وزيت وقناديل .
وغرزت حول الكعبة أعمدة، وعلى رأس كل زوج منها وضع خشب،
أجريت عليها أعمال النقارة والنقش، وعُلقت عليها حلقات وكلابات ليعلقوا
عليها في المساء، المصاييح والقناديل، ويُطلق عليها اسم المشاعل . وبين جدار
الكعبة وهذه المشاعل المذكورة، حوالى مائة وخمسين ذراعاً، وهو مكان الطواف .
والبيوت الموجودة في ساحة المسجد الحرام عدا الكعبة المعظمة - شَرَّفها الله

تعالى - هي :

زمزم .

سقاية الحاج .

خزانة الزيت .

وتحت الغطاء الذي يحيط بالمسجد بجانب الجدار، توجد صناديق، كل منها
مختصة ببلدان المغرب، مصر، الشام، الروم، العراقيين، خراسان وما وراء النهر وغيرها .
وعلى مسافة أربعة فراسخ إلى الشمال من مكّة، هناك منطقة يُقال لها برقة،
وهي مقرّ أمير مكّة مع جنده، وتحتوي على الماء الجاري والأشجار، ويبلغ طولها
فرسخين، ويبلغ نحواً من ذلك عرضها .

وفي هذه السنة، جاورت مكّة من أوّل شهر رجب، وقد جرت عادتهم على
فتح باب الكعبة في شهر رجب كلّ يوم عند مطلع الشمس .

وصف فتح باب الكعبة - شَرَّفها الله تعالى - :

إن مفاتيح الكعبة المشرفة عند قبيلة من العرب يقال لها «بنو شيبه»، ويقوم
على خدمتها زعيمهم . وهو يستلم من سلطان مصر المشاهرة (الراتب الشهري)
وخلعة . وهو الزعيم الذي بيده المفاتيح، وإذا حضر رافقه خمسة أو ستة أشخاص،
فإذا وصل الزعيم مع مرافقيه، ذهب عشرة أشخاص، وحملوا السُّلم - الذي مرّ
ذكره - وجاؤوا به إلى الكعبة ووضعوه أمام الباب، فيصعد عليه ذلك الشيخ

الزعيم، ويقف على العتبة، وبصعد اثنتان آخران حتى يرفعا عن الباب الحلة والديباج. فيمسك أحدهما أحد الطرفين، ويمسك الثاني بالطرف الآخر، كأنهم أرادوا أن يلبسوا الزعيم لبادة وهو يفتح الباب، فيفتح القفل وينزع الحلقة منها، وفي هذه الأثناء يقف عند باب الكعبة جمع من الحجيج يرفعون أيديهم مبتهلين عند فتح الباب، وعندما يتعالى صوت الحجيج يعلم كل الحاضرين في مكة أن باب البيت قد فُتح، فيهمم الجميع بالابتهاال والدعاء بصوت عالٍ، فتدوي الأصوات المنادية دويًا عظيمًا في أنحاء مكة، وعندها يدخل ذلك الشيخ إلى داخل البيت، فيُصلي فيه ركعتين، حيث لا يزال الشخصان حاملين حلة الكعبة. ثم يرجع الشيخ ويترك باب الكعبة مفتوحاً على مصراعيه، ويقف على العتبة ليخطب بالناس - بصوت جهور - فيُصلي على رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وعلى أهل بيته. عندها يقف ذلك الشيخ ومُرافقه على جانبي باب الكعبة فيمسكون بالحاج ويدخلونه إلى الكعبة، فيُصلي الحجيج ركعتين، ويخرجون، ويستمرّون على ذلك حتى ينتصف النهار، فيؤدّون الصلاة في البيت تجاه باب الكعبة وإن جاز أداؤها إلى سائر الجوانب. ولقد أحصيت عدد الناس الذين دخلوا البيت بحيث لم يبق متسع لأحد يدخل، فكانوا سبعمائة وعشرين رجلاً.

إنّ حجاج اليمن عندما يأتون إلى الحج، يفعلون كما يفعل الهنود، حيث يلقون مئزراً على ظهورهم، ويُسدلون شعرهم، ويضفرون لحاهم، متحزّمين بخناجرهم القطيفية، كالهنود، ويُقال إن أصل الهنود من اليمن.

وتُفتح باب الكعبة خلال أشهر شعبان ورمضان وشوال، وأيام الاثنين والخميس والجمعة، وتُغلق بحلول شهر ذي القعدة.

عمرة جعرانة:

على بعد أربعة فراسخ إلى الشمال من مكة، هناك منطقة تسمى جعرانة، فمن هذا المكان أحرم المصطفى ﷺ مع جيشه يوم السادس عشر من ذي القعدة، وجاء

إلى مكة لأداء العمرة. ويحتوي هذا المكان على بئرين: الأولى يُقال لها: بئر الرسول، والثانية: بئر علي بن أبي طالب - صلوات الله عليهما - وماء البئرين عذب فرات، وتفصلهما عن بعضهما عشرة أذرع، ولا تزال تلك السنة قائمة، حيث يعتمر الناس من ذلك الموسم. وبالقرب من تلك الآبار يقع جبلٌ تكثر فيه حُفَرٌ حجرية تشبه الجفان أو الأحواض الصغيرة، ويُقال: إن النبي ﷺ كان يعجن الطحين بيديه الشريفتين في تلك الحُفَر. وكذا يفعل الناس الذين يذهبون إلى هناك حيث يقومون بعجن الطحين من ماء تلك الآبار.

وتوجد في هذه المنطقة أشجار كثيرة، يأخذون حطبها ليطبخوا عليه خبزهم فيحملوه معهم ليوزعوه بعد ذلك تبرّكاً. وهناك توجد صخرة كبيرة حيث وقف عليها بلال الحبشي ليؤذن للصلاة، فهذا يصعد بعض الناس عليها ليؤذّنوا للصلاة. وفي الوقت الذي كنت هناك، كان الحشد عظيماً، حيث زاد عدد الإبل العمارة على الألف، والله أعلم بعددها بعد ذلك.

عرفات:

كانت المسافة في الطريق الذي سلكته من مصر إلى مكة هذه المرة، حوالي ثلاثمائة فرسخ، ومن مكة إلى اليمن كانت اثني عشر فرسخاً، وصحراء عرفات تبدو وكأنها ضائعة بين الجبال، كالتلال الصغيرة، ووسعها بمقدار فرسخين في فرسخين. وهناك مسجدٌ في هذه الصحراء بناه إبراهيم عليه السلام ولكن لم يبق منه غير منبر خرب من الآجر، وعندما يحين وقت الصلاة، يصعد عليه الخطيب، ويُلقِي خطبته، ثم يُؤذّن للصلاة، وتُؤدّي ركعتا الصلاة جماعةً وقصراً كصلاة المسافر. والجميع في هذا الوقت يؤدّون ركعتين أخريين من الصلاة جماعةً، ثم يركب الخطيب على البعير ويتجه نحو المشرق.

جبل الرحمة:

وعلى بُعد فرسخ من هناك، يوجد جبل صغير وحجري يُقال له: جبل

الرحمة، هناك يقف الحجيج ويبتهلون حتى غروب الشمس .
وابن شاد دل أمير عدن، الذي جلب الماء من أماكن بعيدة، وصرف أموالاً
طائلة من أجل هذا كما ذكرنا سابقاً، كان قد جلب الماء من هذا الجبل وذهب به إلى
صحراء عرفات . وقد أنشأ هناك الأحواض التي تملأ بالماء أثناء موسم الحج
ليستقي منه الحاج . وابن شاد دل هذا، قد أنشأ غرفةً عظيمةً على جبل الرحمة، وفي
أيام عرفات توقد المصاييح والشموع، وتوضع على قبة هذا البناء حتى يمكن
للقادِم رؤيتها على مسافة فرسخين .
ويقال: إن أمير مكة قد تلقى مبلغ ألف دينار من أمير عدن مقابل السماح له
بإنشاء ذلك البناء!!!...

المشعر الحرام:

في التاسع من شهر ذي الحجة من سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة هجرية،
أديت مناسك الحج بفضل الله سبحانه وتعالى، وللمرة الرابعة . وقد رجع الخطيب
والحجيج من عرفات عند غروب الشمس، وقطعوا فرسخاً واحداً حتى وصلوا
إلى المشعر الحرام، ويسمى هذا المكان بالمزدلفة، وهو بناء جيد، يشبه المقصورة،
ليؤدّي فيه الناس الصلاة، ويأخذوا منه الحصى التي سيرمون بها الجمرات في منى،
وجرت العادة على أن يقضوا ليلة العيد هناك، ثم يؤدّوا صلاة الصبح، وبطلوع
الشمس يتحركون إلى منى، ليرمي الحجاج الجمرات ويذبحوا أضاحيهم هناك . كما
يوجد هناك مسجد كبير يسمى مسجد الخيف . وليست العادة أن تقام صلاة العيد
والخطبة بمنى، ولم يأمر المصطفى ﷺ بهذا . فالיום العاشر يكونون بمنى ويرمون
الحصى، وشرح ذلك قد ورد في مناسك الحج . وفي الثاني عشر من الشهر، كل من
عزم على العودة، يعود من هنا، وأمّا المقيمون بمكة، فيعودون أدرأجهم إليها^(٨) .

الهوامش :

- (١) و(٢) رحلة ناصر خسرو القبادياني المروزي، تحقيق نادر وزين پور، طهران، كتابهای جيبی، ١٣٧٠، ص ٢.
- (٣) وصف ناصر حالته مع أعدائه في قصيدة طويلة، وللحصول على تفصيل أكثر حول هذه القصيدة، راجع كتاب: چشمه روشن أي النبع المضيء، لقاء مع الشعراء، لغلامحسين يوسفی (طهران، علمي، ١٣٦٩) ص ٨٩ - ٧٩.
- (٤) «ره آورد سفر» هدية السفر، مقتطفات من رحلة ناصر خسرو، تصحيح وتوضيح السيد دبیرسیاقي (طهران، سخن، ١٣٧٠) ص ١٩.
- (٥) الرحلة، ص ٢.
- (٦) رحلة الحكيم ناصر خسرو القبادياني المروزي، تحقيق السيد محمد دبیرسیاقي (طهران، زوار، ١٣٥٦) ص ٣٩.
- (٧) لأجل الحصول على معلومات أكثر حول طبعات هذه الكتب، اقرأ: تحليل رحلة ناصر خسرو لجعفر الشعار (طهران، قطره، ١٣٧١) ص ٢٨.
- (٨) فقرات منقولة، عن رحلة ناصر خسرو بتصحيح نادر وزين پور حيث أوردت معلومات عن التعريف بالكتاب.
- في كتابة هذه المقالة، إضافة للمصادر أعلاه، فقد تمّ الاستفادة من هذين الكتابين:
مع قافلة الحُلّة: مجموعة النقد الأدبي، لعبد الحسين زرين كوب، (طهران، علمي، ١٣٧٠) آواره یمگان ص ١٠١ - ٨٥.
- لقاء مع أهل العلم: حول العشرين كتاب للنثر الفارسي، لغلامحسين يوسفی (طهران، علمي، ١٣٦٧) سيری در آفاق ص ٨٦ - ٥٣.